



وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قم الليل إلا قليلاً﴾. ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نصفه أو انقص منه﴾. أي: من النصف ﴿قليلاً﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أو زد عليه﴾. أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾. فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهوي والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إننا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾. أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان هذا الوصف، حقيق أن يتهاى له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إن ناشئة الليل﴾. أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هي أشد وطأ وأقوم قبلاً﴾. أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن^(٢) القلب واللسان، وتقل الشواغل،

ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٣)، ولهذا قال: ﴿إن لك في النهار سباً طويلاً﴾. أي: تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه للتفكير التام، واذكر اسم ربك﴾. شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وتبشّر إليه تبشيراً﴾. أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلاق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رب المشرق والمغرب﴾. وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب [كلها]، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومديره.

﴿لا إله إلا هو﴾. أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فاتخذه وكيلاً﴾. أي: حافظاً ومديراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونهم ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن. ﴿وذري المكذبين﴾. أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أهملتهم فلا أهملهم، وقوله: ﴿أولي النعمة﴾. أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كل إن الإنسان ليطغى﴾. أن رآه استغنى. ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢ - ١٤﴾. ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾. وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً. ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾. أي: إن عندنا ﴿أنكالاً﴾. أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب^(٦). ﴿وجحيماً﴾. أي: ناراً حامية ﴿وطعاماً ذا غصة﴾. وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾. أي: موجعاً مفضعاً، وذلك ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾. من الهول العظيم، ﴿وكانت الجبال الراسيات الصم الصلاب﴾. كثيباً مهيلاً. أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المتثور.

﴿١٥ - ١٦﴾. ﴿إننا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيللاً. يقول تعالى: احمدا وربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا هذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.

(٢) في ب: عليه.

(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٤) في ب: وفعل المشق.

(٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.

فأخذه الله أخذاً وبلياً أي: شديداً بليعاً.

﴿١٧- ١٨﴾ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً * أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره^(١)، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتنفطر به السماء وتنتثر به نجومها ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

﴿١٩﴾ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً [أي: إن هذه الموعظة التي نبا الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله^(٢)، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً] أي: طريقاً موصلًا إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿٢٠﴾ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقروا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في

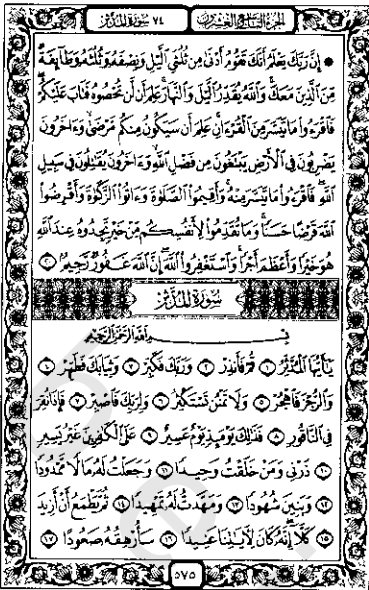
هذا الموضع، أنه امثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى.

﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهاً وعناء زائداً أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدّر أو نقص، ﴿فاقروا ما تيسر من القرآن﴾ أي: مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلح بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعلس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه^(٣)، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحاً]. ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكفوا عن الناس^(٤) أي: فالسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبج له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

وكذلك ﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه﴾ فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفاً للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه



الاول.

وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك^(٥)، فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين^(٦) من حرج، بل سهل شرعه، وراعي أحوال عبادته ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وأقيموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ﴿وأقروا الله قرضاً حسناً﴾ أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتثبيتاً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

(٤) في ب: ويتكفوا عنهم.

(٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره.

(١) في ب: خطره.

(٢) في ب: وأحوالها.

(٣) في ب: ما يسهل عليه.